ترجمة شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية

من كتاب «ذيل تاريخ الإسلام» للإمام محمد بن أحمد الذهبي*

قال رحمه الله تعالى :

اسمه ونسبه:

ابن تيمية، الشيخ، الإمام، العالم، المفسر، المُجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، تقي

---

* الإمام الذهبي غني عن التعريف، فهو الإمام العلامة مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الغارقي الدمشقي الشهير بالذهبي المولود سنة ٦٧٣ والمتوفى سنة ٧٤٨هـ صاحب التصانيف الذائعة الصيت ومن أكبرها تاريخ الإسلام الكبير، وسير أعلام النبلاء وميزان الاعتدال وغيرها من المعاجم والدواوين والتصانيف التي تبين علمه وحفظه وإمامته وشأنه.

تتلمذ علي الحافظ أبي الحجاج المزي (٦٥٤ ـ ٧٤٢) وعلى أبي محمد القاسم البرزالي (٦٦٥ ـ ٧٣٩) وعلي الشيخ تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني (٦٦١ ـ ٧٢٨).

وذيله هذا وصلنا مخطوطاً مضمناً تراجم جماعة من العلماء والفضلاء وغيرهم من بداية القرن الثامن إلى قرب منتصفه تقريباً. فجاء في أول:

«بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلِّ على أشرف خلقك سيدنا محمد وآله وسلم، أخبرني غير واحد مشافهة وكتابة عن الإمام الحافظ الكبير شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز رحمه الله تعالى عليه قال: هذا مجلد ملحق تاريخ الإسلام، شبه الذيل عليه فيه نحو من أربعين سنة أولها سنة إحدى وسبعمائة..». وفي آخره:

«.. تم ذيل كتاب تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام..».

وكاتبه كما في آخره هو عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشي. وذكر أنه فرغ من نسخها تجاه الكعبة المشرفة في ٢٥ صفر سنة ٨٧٤هـ. من مصورات الأصل المحفوظ بجامعة ليدن بهولندا رقم ٣٢٠. والنسخة خطها حسن منقوط غالباً في ١١٦ ورقة، في كل ورقة صفحتان، وفي كل صفحة ٢٧ سطراً، ومتوسط ما في كل سطر عشر كلمات، وفيها تصحيحات وحواشٍ قليلة. وللذيل نسخة أخرى جيدة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام بالرياض رقمها ٤١٠٠ عن دبلن بإيرلندا في ١٤٣ ورقة منسوخة في عصر مؤلفها سنة ٧٤٣هـ ومقروءة، لكن يعيبها أنها مخروقة الأول بعدة ورقات وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية فيها في الورقات من (٨٥ ـ ٨٧). ولا فرق جدير بالذكر والإيراد بينها وبين الأصل الذي أعتمده.

الدين، أبو العباس، أحمد ابن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ــ مؤلف الأحكام ـ ابن عبد الله ابن أبي القاسم الحراني ابن تيمية، وهو لقب لجده الأعلى.

ولادته وهجرته:

مولده في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة بحرّان، وتحوّل به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين عند جور التتار؛ منهزمين يجرون الذرية والكتب على عجلة؛ فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوى بقر الحرث. وكلّت من ثقل العجلة، ووقف الفرار[1] وخافوا من أن يدركهم العدو، ولجأوا إلى الله؛ فسارت البقر بالعجلة ولطف الله تعالى حتى انحازوا إلى حد الإسلام.

شيوخه:

فسمع من ابن عبد الدائم[2]، وابن أبي اليُسر[3]، والكمال ابن عبد[4]، وابن أبي الخير[5]، وابن الصيرفي[6]، والشيخ شمس الدين[7]، والقاسم

---

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة ويمكن أن تقرأ الفران بفاء ونون، أو الغران بغين ونون.

(٢) هو الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي (٥٧٥ ـ ٦٦٨هـ) سمع عليه الشيخ جزء ابن عرفة كله وغيره. وابن عبد الدائم هو مسند الشام، صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٧ في الفتاوى ١٨/ ٧٧.

(٣) هو الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسر التنوخي المُسند (٥٨٩ ـ ٦٧٢هـ) صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٩هـ في الفتاوى ١٨/ ٧٩ في الأحاديث الأربعين له.

(٤) هو الشيخ كمال الدين عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المسند (٥٩٨ ـ ٦٨٠) سمع منه الشيخ كما في الفتاوى ١٨/ ١٠٦ سنة ٦٨٠هـ. وربما هو كمال الدين عبد العزيز بن عبد الله ابن شبل الدمشقي المسند (٥٨٩ ــ ٦٧٢) سمع منه الشيخ سنة ٦٦٩ مع دمشق كما في الفتاوى ١٨/ ٧٨.

(٥) هو الشيخ المسند زين الدين أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم الحداد الدمشقي (٦٠٩ ـ ٦٧٨) قرأ الشيخ عليه سنة ٦٧٥هـ في الفتاوى ١٨/ ٩١ ـ ٩٢. =

الأربلي[1]، وابن عِلان[2]، وخلق كثير[3]، وأكثر وبالغ وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء، وسنن أبي داود، ونظر في الرجال والعلل.

علمه ومكانته:

وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والنبالة، مع الذكر والصيانة. ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف،

= (٦) هو الشيخ المُسند أبو زكريا يحيى بن أبي منصور ابن الصيرفي الحراني المتوفى سنة ٦٧٨هـ قرأ الشيخ عليه سنة ٦٦٨هـ. في الفتاوى ١٨/ ٨٥.

= (٧) هو الشيخ القاضي المسند شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (٥٩٧ ـ ٦٨٢) سمع منه الشيخ سنة ٦٦٧ بجبل قاسيون ١٨/ ٩٥ ـ ٩٦.

(١) هو الشيخ العدل المسند أبو محمد القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الأربلي (٥٩٥ ـ ٦٨٠) سمع منه الشيخ سنة ٦٧٧هـ. الفتاوى ١٨/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) هو الشيخ المُسند أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم ابن علان القيسي (٥٩٤ ـ ٦٨٠) سمع منه الشيخ في سنة ٦٨٠هـ. الفتاوى ١٨/ ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) قال ابن عبد الهادي في العقود الدرية ص ٤ «.. وخلق كثير وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائة شيخ. وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات. وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء. ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، هذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه. اهـ.

وبالمناسبة فإن الأربعين حديثاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رواها عن واحد وأربعين شيخاً وشيخة، وقد رواها عنه تلميذه صاحب ترجمتنا هذه الإمام الذهبي وهي في مجموع الفتاوى كاملة ١٨/ ٧٦ ـ ١٢١.

وقد وقع لي رواية صحيح البخاري من طريق شيخ الإسلام ابن تيمية. وأئمة الدعوة السلفية من بعده. فقد أخبرني الشيخ أبو محمد بديع الدين الراشدي السندي بها إجازة، أخبرني أبو محمد عبدالحق الهاشمي المكي، أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سالم البغدادي عن عبد الرحمن بن حسن عن جده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، عن عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي المدني، عن عبد القادر التغلبي، عن عبد الباقي، عن أحمد الوفاتي، عن موسى الحجازي، عن أحمد الشويكي، عن العسكري، عن الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، عن الحافظ شمس الدين ابن القيم، عن الحافظ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني، عن الحافظ الفخر ابن النجاري، عن أبي ذر الهروي المالكي عن شيوخه الثلاثة: المستملي والسرخسي والكشميهني عن محمد بن يوسف الفربري عن الإمام صاحب الصحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ـــ رحم الله الجميع ورفع درجتهم.

حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح، أو إلى المسند منه؛ كأن الكتاب والسنة نصب عينيه، وعلى طرف لسانه[1]، بعبارة رشقة، وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف.

وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير، والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين.

وأما أصول الديانة، ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة، فكان لا يُشق فيه غباره، ولا يلحق شانه.

مكارم خلاله:

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط: والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذِّ النفس من اللباس الجميل، والمأكل الطيب، والراحة الدنيوية.

تصانيفه:

ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم وألوان، لعلَّ تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص، وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلد، لا بل أكثر[2].

---

(١) بل ذكروا أنه يستظهر مسند الإمام أحمد بن حنبل الذي يحوي قريباً من ثلاثين ألف حديث. وهذا ليس كثيراً عليه فقد قال ابن سيد الناس في وصف علمه: «.. وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً..». اهـ من العقود الدرية ص ٩.

(٢) مؤلفات شيخ الإسلام هي من الكثرة والانتشار حتى قال تلميذه الملازم له الإمام ابن القيم إني عجزت =

صفاتـــه:

وكان قـوّالاً بالحق، نهاءً عـن المنكر، لا تأخـذه في الله لومـة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار.

ومن خـالطه وعـرفه قد ينسبنـي إلى التقصير في وصفه، ومن عـانده وخـالفه ينسبني إلى التعالي فيه؛ وليس الأمر كذلك، مع أنني لا أعتقد فيه العصمة كلا! فإنه مع سعة علمه، وفرط شجاعتـه، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، بشرٌ من البشر تعتريـه حـدة في البحث، وغضـب وشظف للخصم؛ يـزرع لـه عداوة في النفوس، ونفور عنه.

وإلا فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم، ولزم المجـاملة، وحسن المكالمة، لكان كلمة[1] إجماع؛ فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومـه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطائه.

موقف الحاقدين منه:

لست أعني بعـض العلماء الـذين شعـارهم وهجيراهـم الاستخفـاف بـه، والازدراء بفضله، والمقت له حتى استجهلوه وكفروه ونالوا منه من غير أن ينظروا إلى تصانيفه، ولا فهمـوا كلامه، ولا لهم حظ تام في التـوسع في المعارف والمعالم. منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم[2].

= عن حصرها وتعدادهـا ـ من رسالة في أسماء مؤلفات ابن تيميـة ص ٩. وكل من حاول جمع ما يجد لا يستطيع الاستيعاب فهذا ابن القيم وابن عبد الهادي والصـلاح الصفدي وابن رجب كل من جمع شيئاً تجد أنه فاته أشياء ذكرها غيره.

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة فتتحمل ما سطرت أو كلمة أخرى هي: كله.

(٢) هكذا قراءتها في الأصل ولسلامـة التركيب لا بد من إضافة من الموصولة: «منهـم من قد ينصفه ويرد عليه بعلم».

اعتذار وتنويه:

وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران ـ رحم الله الجميع ـ. وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي، أو أن يوضح نبأه قلمي؛ فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقرون لسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له. وأن جوده حاتمي، وشجاعته خالدية.

ولكن قد نقموا عليه أخلاقًا وأفعالاً؛ فمنصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم[1] مغرور، وإلى الله ترجع الأمور.

وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع.

فرحم الله امرءًا تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثم استغفر لهم، ووسَّع نطاق المعذرة. وإلا فهو لا يدري، ولا تدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته؛ فقد أقررت على نفسك بالهوى، وعدم الإنصاف.

دعوى تكفيره وبطلانها:

وإن قلت لا أعذره لأنه كافر، عدو لله تعالى ورسوله. قال لك خلق من أهل العلم والدين: ما علمناه والله إلا مؤمنًا محافظًا على الصلاة والوضوء، وصوم رمضان، معظمًا للشريعة ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتى من سوء فهم؛ بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار، بصير بالكتاب والسنة، عديم النظير في ذلك.

---

(١) هكذا في الأصل، وربما قرأت: غالبهم، والأولى ما في المتن.

ولا هـو بمتلاعب بـالدين؛ فلـو كـان كذلك لكـان أسرع شيء إلى مداهنـة خصومة، وموافقتهم ومنافقتهم.

ولا هو يتفـرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق؛ بل مسائلـه المفردة يحتج لها بالقرآن أو بالحديث أو بالقيـاس، ويبرهنها ويناظر عليها، ويفعل الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمـه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيهـا، فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب فله أجران.

وإنما الذم والمقت لأحـد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبـد حجة، ورجل تكلم في مسألـة بـلا خميرة من علم، ولا تـوسع في نقل؛ فنعـوذ بـالله من الهوى والجهل.

بين الأعداء والمحبين:

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالِم فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف، والقيام عليه.

ولا اعتبار بمدح خواصه والغـلاة فيه، فإن الحب يحملهم على تغطية هناته؛ بل قد يعدونها محاسن.

وإنما العبرة بأهل الـورع والتقـوى في الطـرفين، الـذين يتكلمـون بـالقسط، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم.

فهذا الرجل[1] لا أرجو على ما قلتـه فيه دنيا ولا مالاً ولا جاهًا بـوجه أصلاً، مع خبرتي التـامة بـه، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أن أكتم محاسنـه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفـورة في سعة كرم الله تعالى وصفحه، مغمورة في بحر علمه وجوده؛ فـإن الله يغفر له ويرضى عنـه، ويرحمنا إذا صرنا إلى مـا صار إليه مع أني مخالفٌ لـه في مسائل أصليـة وفـرعيـة، قد أبـديت آنفًـا أن خطاءه فيهـا

(١) يعني شيخه المترجم له ابن تيمية.

مغفورة؛ بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده، وبذل وسعه، والله الموعد. مع أنني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده فحسبي الله.

وصف خَلْقه:

وكان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة.

يعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه المنتهى في فرط الشجاعة، والسماحة، وقوة الذكاء.

ولم أر مثله في ابتهاله، واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجهه.

وقد تعبت بين الفريقين: فأنا عند محبه مقصر وعند عدوه مُسرف مُكثر، كلا والله!.

وفاته وجنازته:

توفي ابن تيمية إلى رحمة الله تعالى معتقلاً بقلعة دمشق بقاعة بها بعد مرض حدَّ[1] أيامًا، في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وصُلِّي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر، وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة؛ حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد، وأقلُّ ما قيل في عداد من شهده خمسون ألفًا؛ وقيل أكثر من ذلك. وحُمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين[2] رحمهما الله وإيّانا والمسلمين.

---

(١) هكذا في الأصل مهملة، ولعلها: جدًّا ياماً. أي: اشتد المرض عليه، وكلاهما يصلح. ذكر ابن رجب في آخر ترجمته له، الذيل ص ٤٠٥، أنه مرض بضعة وعشرين يوماً. وذكر في العقود الدرية ص٢٤٠: أنه بقي في سجن قلعة دمشق سنتين وثلاثة أشهر وأياماً. وهذا في سجنه الأخير.

(٢) هو أبو محمد عبد الله أخوه الأكبر مات في ١٤/ ٥/ ٧٢٧هـ. كانت جنازته أيضاً مشهورة.

قصيدة في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية للإمام الذهبي[1] قال فيها :

يـــا مـــوت خـــذ من أردت أو فـــدع
محوت رسـم العلـــــــوم والـــــــورع
أخـــــذت شيخ الإســـــلام وانفصمت
عـــــرى التقى واشتفى أولـــو البـــدع
غيبـت بحـــــــرًا مفسرًا جبـــــلاً
حبـــــرًا تقيـــًّا مجانـــب الشبـــع
فـإن يحدث فمسلـم ثقـــــــــة
وإن ينـــــاظـــــر فصـــــاحب اللمع
إن يخض نحـــو سيبـــويـــه يفُـــهْ
بكـــــل معنـــــى في الفـــــن مخترع
وصـــار عـــالي الإسنـــاد حـــافظـــة
كشعبـــــــة أو سعيـــــــد الضبعي
والفقـــه فيـــه فكـــان مجتهـــدًا
وذا اجتهـــــاد عـــــار من الجزع

---

(١) هذه القصيدة ذكرها في العقود الدرية ص ٢٨٨ مع مراتٍ كثيرة قيلت في الشيخ وبالمناسبة تنسب للذهبي نصيحة ذهبية، وقد قرأتها فإذا هي تناقض ما هاهنا من ترجمته له، والشك أصلاً في نسبتها إليه، لا سيما وناشروها هم خصوم الشيخ، وهم متهمون.

وجـــــــــوده الحاتمي مشتهـــــــــــر

وزهـــــــــــده القـــــــــادري في الطبـع

أسكنـــــــــــه الله في الجنـــــــــــان ولا

زال علينـــــــــــــــــــــا في أجمل الخلـــع

مـــع مـــالـــك والإمـــــام أحمـد والنعـــ

ـــمـــــــــان والشافعـــــــي والنخعـــــــي

مضـى ابن تيميـــــــة ومـــــــوعـــــده

مـع خصمـــــه يـــــوم نفخـــــة الفـــــزع

obeikandl.com